فاعلية النص التراثي في اختبار الفروض العلمية في التطبيقات النقدية المعاصرة

The effectiveness of the heritage text in testing scientific hypotheses in contemporary critical applications

إعداد

د.شريف حتيتة الصافي

Dr. Sherief Heteta Elsafy

أستاذ مساعد جامعة الشرقية - (سلطنة عمان)

جامعة القاهرة - (مصر)

Doi: 10.21608/mdad.2025.421878

استلام البحث	٢٠٢٥/٣/١
قبول النشـر	٢٠٢٥/٣/١٠

الصافي، شريف حتيتة (٢٠٢٥). فاعلية النص التراثي في اختبار الفروض العلمية في التطبيقات النقدية المعاصرة. ***المجلة العربية مـــداد***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٩(٢٩)، ٩٥- ١٢٢.

http://mdad.journals.ekb.eg

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

فاعلية النص التراثي في اختبار الفروض العلمية في التطبيقات النقدية المعاصرة

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة نماذج من النقد العربي المنهجي الذي طُبِّق على النص الأدبي القديم؛ وذلك بُغيةَ التحقق من فرضية مؤدّاها أن النص الأدبي التراثي كان يتيح لهذه المناهج تطبيقًا أكثر فاعلية بما له من ممكنات كميّة وموضوعية. وفي سبيل ذلك تناول البحث قضية العلمية في النقد الأدبي تاريخيًّا وموضوعيًّا؛ وذلك في النقدين العربي والغربي، وكيف أن هذه القضية ظلت إشكالًا لا يمكن حسمه في ضوء حضور البعد الذاتي في العمليتين الإبداعية والنقدية على حدٍّ سواء. وقد قدّم البحث نماذج على التطبيق النقدي المنهجي على الشعر الجاهلي، تنتمي إلى الأسلوبية والبنيوية والسيميائية بوصفها المناهج النقدية التي ارتبطت بالنص من الداخل، وكانت لها إجراءاتها الواضحة، وفروضها التي تسعى وفق أدوات معروفة إلى التحقق منها، فتناولت دراسة لأحمد صلاح إبراهيم تطبِّق مقياس يول الأسلوبي الإحصائي على شعر امرئ القيس، ودراسة لكمال أبي ديب للشعر الجاهلي وفق المنهج البنيوي، ودراسة لموسى ربابعة للشعر الجاهلي وفق المنهج السيميائي، وجميعها التزمت المنهجية في الفروض والمفاهيم والإجراءات، على نحو ما بيّنته الدراسة وما انتهت إليه نتائجها.

الكلمات المفتاحية: (فاعلية- النص - التراثي- العلمية - الفروض- النقد).

Abstract:

This study aims to explore select models of systematic Arabic criticism applied to classical literary texts, seeking to validate the hypothesis that classical literary heritage offers these methodologies a more effective application due to its abundant quantitative and thematic potential. To achieve this, the research delves into the concept of scientific rigor in literary criticism,

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

examining it both historically and conceptually within the contexts of Arab and Western criticism. It underscores how this issue remains a persistent dilemma, largely unresolved due to the inherent subjectivity in both the creative and critical processes. The study provides examples of methodological critical applications to pre-Islamic poetry, focusing on stylistic, structural, and semiotic approaches intrinsically linked to the internal dynamics of the text. These approaches are characterized by clear procedures and hypotheses designed to be tested through established tools. Among the examples presented are Ahmed Salah Ibrahim's application of Yule's statistical measure to the poetry of Imru' al-Qais, Kamal Abu Deeb's structuralist analysis of pre-Islamic poetry, and Mousa Rababah's semiotic study of pre-Islamic poetry. Each of these studies adheres strictly to methodological frameworks in terms of hypotheses, procedures, and concepts, as detailed in the research and reflected in its conclusion.

Key Words: Keywords: (effectiveness - text - heritage - scientific – hypotheses - criticism).

. . .

١- مقدمة:

عرف النقد العربي الحديث العديد من المناهج النقدية المرتحلة من البيئة النقدية الغربية إلى البيئة النقدية العربية، بعد أن حاول النقاد العرب بأجيالهم المتتابعة توطينَها بممارسات منهجية تطبيقية على نصوص من الأدب العربي الحديث قديمه وحديثه، ولكن المفارقة اللافتة أن هذه المناهج، وهي الحديثة، وجدت في النصوص القديمة مادة ثرّة للتطبيق بعرض فروضها العلمية عليها واختبار صحتها والوصول إلى نتائج تساعد على حل إشكالات عديدة ارتبطت بالنص التراثي ومنها ما شكّل جدلًا كبيرًا عبر مئات السنين.

ISSN : *2537-0847* eISSN : *2537-0898*

ارتبط النقد الأدبي الحديث إذن بعلوم مستقرّة ذات منهجية منضبطة، وشهدت المدوّنة النقدية الحديثة تطبيقات لافتة على النصوص الأدبية التراثية، في أكثر من جنس أدبي، وهذا المنزع في اختيار النصوص محل التطبيق يمثِّل ملمحًا بارزًا يجعلنا نلتفت إلى ممكنات النص التراثي، وفاعليته عند وضعه في مختبر علمي منهجي؛ من هنا تأتي الفرضية الرئيسة لهذا البحث؛ ألا وهي: أن النص التراثي به مقوّمات جعلته مقصدًا لكل من يريد تطبيق إجراءات علمية صارمة لأي منهج نقدي يدّعي "العلمية" في نظريته وإجراءاته. ومن ثمّ تأتي الأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عليها: هل كان النص التراثي معينًا على الوصول لنتائج صلبة وحاسمة؟ وما المقوّمات التي جعلت من النص التراثي ملائمًا للتطبيقات المنهجية على حداثتها؟ وإلى أي مدى كان هناك وعي واضح لدى من طبّقوا هذه المناهج بمقوّمات هذا النص ولذا جاء اختيارهم له؟ وما مبرراتهم التي أفصحوا عنها في الاختيار؟ وما مدى مقبولية هذه المبررات؟

يحاول هذا البحث أن يكشف عن مقوّمات النص التراثي التي لاءمت النزعة العلمية لبعض المناهج النقدية المعاصرة، ويكشف أيضًا عن حالة الوعي لدى الممارسين لأدوات المنهج العلمي على النصوص الأدبية التراثية؛ وفي سبيل ذلك اتخذ البحث من نماذج مختارة من التطبيقات موضوعًا للاستكشاف والدراسة، كما أن حدود البحث توقّفت عند الممارسات المنهجية التي بها ملامح واضحة لصفة "العِلمية"؛ من حيث الصرامة في التطبيق، والقابلية للقياس في الإجراءات والنتائج، هذا إلى جانب توافر القصدية في اختيار النصوص، والحيثية التي بها علّل المطبقون اختياراتهم.

يعمل هذا البحث على محورين؛ الأول الموقف في النقدين الغربي والعربي من "العلمية" في المعالجة النقدية، وما أثمرت عنه هذه العلمية في كبرى تجلياتها مثل البنيوية والسيميائية والأسلوبية. وأما المحور الثاني فيتناول نماذج للتطبيقات المنهجية التي وضعت فيها فروض من صميم المنهج العلمي النقدي، بغية التحقق من صلاحيتها بقراءة نصوص من الشعر الجاهلي، بوصفه النموذج الأنسب لتمثيل النص الأدبي التراثي، ولا يمكن تجاوزه إلى غيره.

١-٢ الدراسات السابقة:

لا شك أن الشعر الجاهلي تعاورته بحوث عديدة من جوانب تاريخية وموضوعية

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

وفنية، ولم يكن بعيدًا عن أحدث المناهج النقدية تطبيقًا في النقد العربي الحديث، وهذه الدراسات ليست موضوعًا لبحثنا هنا، وإنما الموضوع هو الدراسات التي تناولت هذه البحوث وراجعتها ووقفت على المنهجية فيها فرضًا وإجراءات ونتائج، ولذا فإن الدراسات السابقة بالنسبة لنا هي التي جاءت من قبيل نقد النقد المنهجي للشعر الجاهلي، ومما وجدناه في هذا الصدد، ولا نزعم إلمامنا التام بكل الدراسات، كتاب "الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا" لعفيف عبد الرحمن (١٩٨٥). وهو عمل ضافٍ جمع فيه دراسات القدماء والمحدثين من العرب والمستشرقين حول الأدب الجاهلي، وفيه وقفات تقويمية مهمة، لكنها ليست بالتعمُّق الكافي للفحص المنهجي لدراسات المحدثين خاصةً، وهو يقول في مقدمة الكتاب: "إنني لم أتدخل في تلك المناهج ناقدًا ومقوّمًا بل تركت كل منهج يعرض ملامحه العامة وللقارئ أن يقارن ويحكم بعد ذلك، ويختار أيضًا المنهج الذي يرتضيه"[١].

ثمة دراسات تناولت تقييم الممارسات التطبيقية على الشعر الجاهلي، ومنها واحدة من الممارسات محل دراستنا هنا، وأعني تطبيق كمال أبي ديب للبنيوية على الشعر الجاهلي وتحديدًا على قصيدة امرئ القيس، من ذلك دراسة يوسف حامد جابر المعنونة بـ"بنيوية كمال أبو ديب. عرض ومناقشة لدراسة الناقد البنيوية"، عالم الفكر، مج ٢٥، ع٤، يونيو١٩٩٧. وفي هذا البحث يقيّم تجارب أبي ديب النقدية في أهم مؤلفاته: "جدلية الخفاء والتجلّي"، و"الشعرية"، و"الرؤى المقنّعة"، ولكنه لا يتعرض لإجراءاته المنهجية من الزاوية التي نقصدها هنا، واكتفى بتقييمات للتجربة النقدية في مجملها، وهي تقييمات لم تكن إيجابية إزاء تجربة أبي ديب، وهي تتشابه مع دراسات عديدة تناولت أبا ديب

[١]- عفيف، عبد الرحمن: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا" لعفيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٥، ص٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ومنجزه في التطبيقات البنيوية على الشعر الجاهلي بخاصة[٢].

وفيما يخص إشكالية علمية الممارسة النقدية فقد جُمِعت نماذج من النقد العربي في هذا الجانب في بحث ماجستير لعاشور توامة بعنوان: "الأبعاد العلمية في النقد الأدبي العربي المعاصر"؛ وتحديدًا الفصل الثالث: "البعد المنهجي التحليلي في الخطاب الأدبي عند النقاد العرب المحدثين"، تطبيقًا على كمال أبي ديب، وصلاح فضل، وعبد الله الغذامي، ومحمد مفتاح. وقد أفرغ هذا البحث جلّ جهده في العرض للمناهج النقدية وارتحالها إلى النقد العربي، بينما لم تنل الإشكالية الرئيسة له العناية الكافية، وعلى كل حال فإن ما نرمي إليه في بحثنا هنا يختلف بصورة كبيرة عن هذا البحث في مقاصده؛ لأننا نهدف إلى التمثيل على مدى فاعلية النصوص التراثية في المقاربة النقدية المنهجية، ولا نجزم بحكم مسبق حول إثبات أن النص التراثي أكثر فاعلية من النص الحديث، ولكن البحث يروم التحقق من صلاحية النص ومن جدوى التطبيق عليه، على النحو التي تظهره المدوّنة النقدية الثرية في هذا الجانب.

١-٣ حدود الدراسة:

لقد قصد البحث إلى استجلاء فاعلية النص التراثي في التحقق من الفروض العلمية من خلال بعض التطبيقات النقدية الأصيلة منهجيًّا، التي ينصُّ أصحابها على المنهج المتّبع فيها، فتكون خالصة وفق هذا المنهج، ويكون التطبيق فيها شاملًا النص كله، مستوعبًا كمًّا مقبولًا من الأدوات المعلومة في هذا المنهج، والأساسية فيه، وفق جهاز مفاهيمي ثابت وواضح ودالّة على المنهج المتّبَع.

٢- المبحث الأول: عِلْميَّة النقد بين النقدين العربي والغربي:

لا شك أن أبرز صفة يمكن أن نخلعها على النقد الأدبي الحديث هو أنه استحال علمًا

[٢]- من ذلك على سبيل التمثيل: بلبولة، أحمد: صراع التأويل في معلقة عنترة، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ع٩٤، أغسطس ٢٠١٦. وميدان، أيمن: الشعر الجاهلي وتعدد القراءات. كمال أبو ديب نموذجًا، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ج٧٧، ٢٠١٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

في مرجعياته وفروضه وإجراءاته، أو إلى هذا يطمح، بعد أن تخلّى عن كثير من التوجُّهات الانطباعية في القراءة، وعن الولع بالأحكام النقدية التي لا تتأسس على فحص علمي دقيق.

تولّدت إشكالية "العلمية" في الدراسة الأدبية من انفتاح الدرس الأدبي على غيره من العلوم الإنسانية المتاخمة له، ومن انفتاح العلوم الإنسانية ذاتها على غيرها من العلوم الاجتماعية والتجريبية، في بيئية صارت سمةً لصيقة بالدراسات المعاصرة، ومنزعًا يعود إليه الفضل في تطوير الدراسات الإنسانية.

لقد لازمت الانطباعية والذاتية الدراسة الأدبية ردحًا من الزمن، وبولغ في الاعتماد عليها، وصار البون شاسعًا بين الدرس الأدبي والعلم، لغةً ومنهجًا، إلى أن أرادت الدراسة الأدبية أن تلحق بركب العلوم التجريبية المنضبطة، لكنّ الانتقال على النحو مثل إشكالًا كبيرًا، في ظل ما يكتنف العملية الإبداعية ذاتها من نزعة ذاتية كشأن الفنون جميعها التي تنماز بالفرادة البشرية، وبالخروج عن الضبط، وأي محاولة للمساس بذلك قد ينقص من طبيعتها الإبداعية، هكذا صار الاعتقاد زمنًا طويلًا، غير أن الرغبة المُلِحّة في مسايرة لغة العلم، ولاسيما بعد أن ظهرت مناهج من صميم العلوم الإنسانية يمكن أن تقدّم حلًّا، ضاقت الفجوة التي كانت متسعة؛ وصارت لدى كثيرين قناعة بأن الأدب ليس أقل من العلوم الأخرى الإنسانية والاجتماعية التي طالتها المنهجية العلمية، وفي ذلك يقول سعد مصلوح؛ أحد المرتحلين بالمنهج اللساني إلى النص الأدبي: "الذي أعتقده أن الأدب فن ولكن دراسة الأدب ينبغي أن تكون علمًا منضبطًا"[٣]. ويقول أيضًا مختلفًا مع أحمد الشايب: "ليست دراسة الأدب في ذلك بدعًا حتى تتخلّف في هذا المضمار عن اللحاق بعلوم أخرى مثل علم اللغة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغير ذلك من العلوم، لذلك تجدنا لا نطمئن إلى القالة الشائعة باستحالة أن يكون النقد علمًا منضبطًا، والتي عبّر عنها الأستاذ أحمد الشايب حين ناقش هذه القضية، وانتهى إلى أن النقد يعدُّ موقفًا وسطًا

[٣]- مصلوح، سعد: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

بين العلم والفن بمعناه الدقيق أو هو فن منظّم"[٤].

وكان أحمد الشايب من أوائل النقاد العرب الذين تكلموا في علمية النقد الأدبي وإمكانية ذلك، وقد ناقش الأمر مناقشة ضافية من كل الوجوه، في الفصل الرابع من كتابه الرائد "أصول النقد الأدبي" تحت عنوان: "النقد الأدبي بين العلم والفن"، وهو وإن كان قد انتهى إلى وسطية النقد الأدبي بين الاتجاهين العلمي والأدبي، على النحو الذي ذكره سعد مصلوح، فإنه في طوايا المعالجة والمناقشة قد طرح إشكالات عديدة تؤثِّر على قبول هذه النتيجة التي انتهى إليها مصلوح نتيجةً صلبة واضحة؛ لأن الوصف بالوسطية في حد ذاته أمر غير محسوم ولا نستطيع تحديده بدقة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المناقشات التي ساقها فيها ما يفتح الباب واسعًا أمام القول بإمكانية العلمنة للممارسة النقدية.

لقد ناقش أحمد الشايب فرص العلمية أمام النقد الأدبي من زوايا: الأدب نفسه، والعملية النقدية، والذوق الذي ينازع العلم في الفعل النقدي، وما انتهت إليه مناقشاته في هذه الجوانب تعزّز من فرص العلمية أكثر من غيرها؛ ففيما يخص الحاجة إلى الضبط العلمي بدلًا من الذوق، يرى أن "ترك النقد خاضعًا للأذواق الفردية يعرّضه للفوضى والباطل ما دام كل يتبع هواه وما دمنا لا نثق بسلامة هذه الأذواق كلها حتى نطمئن إلى أحكامها"[٥]. إلى أن يقول في انتهاء مناقشته فيما يخص ضبط الذوق نفسه وإخضاعه للعلم: "نستطيع أن ندرس الذوق ونضع له مقاييس تضبطه رقيًّا وانحطاطًا وهذه المقاييس تصبح قوانين علمية تفيد في علم النقد الأدبي"[٦].

وتكتمل الرؤية بقوله فيما يخص فرص الاتفاق الذوقي تجاه بعض الأعمال الأدبية المهمة في التاريخ الإنساني؛ يقول: "والحق إن وجوه الخلاف الذوقي بين الشعوب المختلفة، والعصور المتعاقبة والنقاد النابهين أقل كثيرًا من وجوه الاتفاق، على أن هذه إن

---

[٤]- المرجع السابق، ص٢٦.

[٥]- الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة، القاهرة، ١٩٩٤، ص١٥٧.

[٦]- المرجع السابق، ص١٥٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لم تكن أكثر عددًا فهي أعظم أهمية؛ فإذا لم يُسلّم بذلك نفينا وجود الأدب الخالد ولا شيء في الدنيا يخلد خلود الأدب والفن بوجه عام ويمكنك أن تلاحظ ذلك في إجماع الشعوب على عظمة هومير وشكسبير، وعلى إقرار الناس بعظمة المتنبي وجمال البحتري وبراعة الجاحظ، مهما تختلف بهم العصور والبيئات"[٧].

وفي ضوء ما تقدّم من استخلاصات للشايب، فإن الأمر لا يبدو على النحو الذي استخلصه سعد مصلوح في أن الشايب يرى الوسطية حلًّا، وإنما الأقرب في رأينا أن الأمر موضع جدل وإشكال ولا يمكن حسمه بسهولة، فهذا هو المقبول في ضوء ما فتحه من نوافذ نحو العلمية في كل ما تنقسم فيه العلميتان الإبداعية والنقدية على حدٍّ سواء.

كان شكري عيّاد في كتابه "دائرة الإبداع"، من النقاد العرب الذين أولوا هذه الإشكالية عنايتهم؛ الذي عالج المسألة في الفصل الأول من الكتاب تحت عنوان "النقد الأدبي بين العلم والفن"، وانتهى فيه إلى أن المنظور إلى العلمية في النقد الأدبي يختلف باختلاف المذاهب من الكلاسية والرومانسية والواقعية، وهذا الاختلاف يرتبط بأحكام القيمة وموقع الذوق منها، وينتهي رأيه إلى أن النقد في منزلة بين العلم والفن، ولكن الأهم مما انتهى إليه هو الحيثية التي أفضت إلى هذه النتيجة، وهي مرتبطة بالذوق وفرصة أن يكون معياريًّا بوصفه طريقًا من طرق المعرفة؛ وهذه نتيجة مهمة؛ فمعلوم أن أصل عدم الاتفاق بين المنظّرين في هذه المسألة هو موقفهم من الذوق بوصفه نشاطًا ذاتيًّا فرديًّا محضًا، ولا يمكن أن يُحدّ بحدود؛ ولذا فإن حديثه عن الذوق يبدو من الأهمية بمكان، ويمكن أن يؤسّس عليه.

وما انتهى إليه عيّاد يقترب مما سبق أن انتهى إليه أحمد الشايب من قبل؛ وخصوصًا في النظر إلى الذوق، يقول شكري عياد: "إن الذوق إذا نُظِر إليه على أنه طريق من طرق المعرفة يمكن أن يجمع بين التقييم والتفسير كما يجمع بين العلمية والفنية وبين الأحكام العامة والأحكام الجزئية؛ أي أن هذه الكلمة متعددة الأوجه يمكن أن تغنينا عن فكرة المقاييس المتدرجة التي اضطُرِرْنا إليها حين لاحظنا أن اعتبار العلمية والفنية وما يتبعهما وحداتٍ متناظرة ومنفصلة لا يساعدنا على فهم الطبيعة الحقيقية للنقد الأدبي.

[٧]- المرجع السابق، ص١٦٠.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

فالذوق يمكن أن يدل على طريقة لاختبار الواقع تناظر الطريقة العلمية وإن كانت ذات طابع شخصي؛ وبذلك يكون النقد في منزلة متوسطة بين العلم والفن"[٨].

ويعد طرح عيّاد أحد الطروحات التي يمكن أن تخطو بالنقد الأدبي خطوة كبيرة نحو الضبط العلمي مع الوعي بخصوصية النقد بوصفه فعلًا ذاتيًّا؛ ويلخص أحد الباحثين موقف شكري عياد بقوله: "إن مسالة العلمية في فهم شكري عياد لها ليست وليدة هذا التماسّ الذي حدث بين الأدب والعلوم التجريبية والإنسانية في العصر الحديث، وإنما هي متعلقة بكل المحاولات التي جعلت نصب عينيها وضع القوانين العامة للإبداع الأدبي[٩].

عرف النقد الغربي هذه الإشكالية على نحو أكثر قربًا وتحديدًا؛ فالحديث عن مناهج توالدت في ظروف تحوُّل شامل في منظومة الفكر الغربي، تلك المنظومة التي تحولت نحو علمنة كل شيء بما في ذلك العلوم الإنسانية المحضة، وتعد البنيوية الانطلاقة الأولى لعلمنة النقد الأدبي بصورة صريحة واضحة، ويبرر تيري إيجلتون ذلك بأنه كان ردة فعل على النقد الجديد، يقول: "مع تطور المجتمع الأمريكي الشمالي خلال خمسينيات القرن العشرين، وتحوله إلى أساليب في التفكير علموية Scientistic وإدارية أكثر صرامة، بدا أن ثمة حاجة لشكل من التكنوقراطية النقدية أكثر طموحًا"[١٠].

وقد تحقق ذلك بالبنيوية التي يراها إيجلتون تبدأ بكتاب "تشريح النقد" لنورثروب فراي؛ يقول: "اعتبر فراي أن النقد يعاني من خلْط محزن بعيد عن العلم ويحتاج إلى ترتيب بارع. وأنه مسألة أحكام قيمة ذاتية، وقيل وقال تافهين، ويتطلب من الضبط وبصورة مُلِحّة ما لنظام موضوعي. واعتقد فراي أن ذلك ممكن لأن الأدب ذاته يشكّل مثل هذا النظام System. فالأدب في الواقع ليس مجرد تجمّع عشوائي لكتابات مبعثرة

---

[٨]- عياد، شكري محمد: دائرة الإبداع مقدمة في أصول النقد، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، الطبعة الأولى، دبي، ٢٠٠٨، ص٣٣.

[٩]- مكاكي، محمد: إشكالية العلمية في النقد الأدبي من منظور شكري عياد، مجلة دراسات معاصرة، مجلد ٦، عدد ٢ ، ٢٠٢٢، ص٣٢. ص ص ٣٠-٤٠.

[١٠]- إيغلتون، تيري: نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، سلسلة دراسات نقدية عالمية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٥، ص١٥٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

عبر التاريخ: وإذا ما تفحّصته بدقّة يمكنك أن ترى أنه يعمل من خلال قوانين موضوعية معيّنة، يمكن للنقد ذاته أن يصبح منظّمًا من خلال استنباطها"[١١].

الحقيقة إن نورثروب فراي من إشهار كتابه بهذا العنوان المتضمن مفردة "تشريح"[١٢] بما ينطوي عليه من دلالة شديدة الالتصاق بأوليات العلم التجريبي، نصَّب نفسه رأسًا في الداعين إلى علمية العملية النقدية أو بالأحرى أن يكون النقد دراسة منظّمة، ولا ضير عنده من أن يعمل النقد المؤسس على العلم جنبًا إلى جنب مع النقد الجماهيري أو النقد القائم على الذوق السائد في حقبة تاريخية محددة، وقد فصّل القول في طرحه الإشكالي، مبرهنًا على جدوى دعوته إلى التحول بالنقد إلى أن يكون اشتغالًا علميًّا، منطلقًا في ذلك من اعتقاده بأن "وجود العلم في أي موضوع يغيّر من طبيعته، فتصبح النظرات العابرة نظرات تبحث في الأسباب، وتتحول النظرات العشوائية الحدسية إلى نظرات منظّمة، تحمي حمى الموضوع من أي غزوات خارجية".[١٣]

لا يفرّق النقد الغربي بين البنيوية والسيميائية في حركة النقد نحو العلمية، فهما قرينان في كتب النظرية الأدبية، وقد جمع بينهما إيغلتون، مثلما جمع بينهما جوناثان كولر الذي يذهب المذهب نفسه في عدّ البنيوية على نحوٍ خاص باب النقد نحو العلمية، وهي المقترح المنهجي الذي يقدّم النقد على أنه ضرب من ضروب المعرفة؛ يقول في كتابه "شعريات بنيوية": "إن ما أنشده في هذا الكتاب هو أنه من خلال محاولتي لإنعاش النقد وتحريره من دوره المحصور في التفسير، فإنني أسعى إلى تطوير برنامج من شأنه

---

[١١]- المرجع السابق، ص١٦٠.

[١٢]- تجدر الإشارة هنا إلى أن فراي لم يكن أوّل من استعمل هذه المفردة في عنوان لكتاب في العلوم الإنسانية؛ فقد سبقه إلى ذلك Amabel Wiliams Elis وذلك في كتابه المعنون بـ "تشريح الشعر Anatomy of Poetry " وذلك سنة ١٩٢٢. كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن بعض النقاد العرب استعملوا هذه المفردة في بعض عناوين كتبهم، ومنهم عبد الله الغذامي في كتابه "تشريح النص" ٢٠٠٨.

[١٣]- فراي، نورثروب: تشريح النقد. محاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٩١، ص٨.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أن يقدم النقد بوصفه أسلوبًا من أساليب المعرفة"[١٤].

وقد تتابعت مؤلفات عديدة في النقد الغربي وقفها أصحابها على التبشير بالمناهج العلمية في الدراسة الأدبية، على نحو يشي بأن النقد الغربي كله يسير في هذا الاتجاه، والحقيقة إن هذه الحال لا تعني أن النقد الغربي في مجمله يتبنّى العلمية ويتحيّز لها، فثمة أصوات عديدة أخرى انتقدت بشدة النزعة العلمية للنقد الأدبي من ذلك تودوروف الذي كتب كتابه الشهير "الأدب في خطر" الذي ينتقد فيه الابتعاد في تدريس الأدب ونقده عن مقاصدهما معًا، بالتحول إلى المنهجية الصارمة أو الجاهزة، فهو يطرح سؤالًا في نهاية كتابه حول الطريقة المثلى لمعالجة الأدب منهجيًّا، ويقدّم إجابة مفادها أنه لا ينبغي أن تتحول الأدوات إلى غايات؛ يقول: "أي طريقة ينبغي سلوكها لبسط معنى عمل أدبي واستجلاء فكر الفنان؟ كل "المناهج" جيدة، بشرط أن تظل وسيلة بدل أن تتحول إلى غاية في حد ذاتها"[١٥].

وينتهي إلى خلاصة موقفه من نقد الأدب، وإلى الطريقة المثلى – في رأيه- للتعامل مع المناهج النقدية بحسب وعيه لطبيعة الأدب ودوره؛ يقول: "ندرك بالتدريج أن كل هذه المنظورات أو المقاربات لنصٍّ من النصوص، ليست بتاتًا متنافسة، بل متكاملة، بشرط التسليم منذ البداية بأن الكاتب هو ذاك الذي يلاحظ ويفهم العالم الذي يعيش فيه، قبل أن يجسّد هذه المعرفة في قصص، وشخوص، وإخراج، وصور، وأصوات. بعبارة أخرى، الأعمال الفنية تنتج المعنى والكاتب يفكّر، ومهمة الناقد هو تحويل هذا المعنى وهذا الفكر إلى اللغة المشتركة في عصره، وليس مهمًّا معرفة الوسائل التي يبلغ بها هدفه"[١٦].

٣- الفرض المنهجي والشعر الجاهلي:

14 -Culler, Jonathan: Structuralist Poetics, Structuralism, Linguistics and the Study of Literature, londen and New York, First Published in Routledge Classics, 2002, P. XIV.

[١٥]- طودوروف، تزفيطان: الأدب في خطر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص٥٣.

[١٦]- المرجع السابق، ص٥٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

لقد بدأت المعالجة العلمية الموضوعية للشعر الجاهلي في فترة مبكرة، منذ تناول طه حسين للأدب الجاهلي في منهجية نصّ عليها في كتاب "في الأدب الجاهلي"، وتكررت مفردة المنهج كثيرًا في هذا الكتاب على نحو غير مسبوق[١٧]، وكذلك فإن ثمة دراسات موضوعية عديدة أخرى تتابعت على الشعر الجاهلي، ولكن التجلي الأكبر للمنهجية العلمية خرجت في العصر الحديث من تزاوج اللسانيات مع الشكلانية؛ متركِّزًا في مناهج ثلاثة؛ هي الأسلوبية والبنيوية والسيميائية.

عرفت البيئة النقدية العربية هذه المناهج الثلاثة على نحو كبير، وتحققت من صلاحيتها عن قرب تطبيقًا على النص الأدبي العربي، وردًّا لبعض أصولها إلى النقد العربي نفسه، ولذا فقد كان للأسلوبية على سبيل المثال حظ وافر في البيئة النقدية العربية، ولاسيما الإحصائية، وذلك لوضوح إجراءاتها والممكنات الواسعة لتطبيقها على النصوص الأدبية العربية. ويرى سعد مصلوح أن الشكلانيين هم الأقرب إلى العلم من غيرهم من أصحاب المناهج النقدية؛ يقول: "إن المذهب الشكلي يكاد يكون في رأينا أقرب المذاهب النقدية إلى روح العلم"[١٨]. ويعلل ذلك بارتباطها بالبحث اللساني، وهذا صحيح؛ لأن ثمة ارتباطًا بين هذه الاتجاهات في البحث الأدبي يعود إلى وحدة الأصل، وهو التفرُّع عن البحث اللساني؛ "فإذنا كانت لسانيات سوسير قد أنجبت أسلوبية باليّ فإن هذه اللسانيات نفسها قد ولّدت البنيوية التي احتكت بالنقد الأدبي فأخصبا معًا شعرية جاكبسون وإنشائية تودوروف وأسلوبية ريفاتير"[١٩].

من هذا الباب فإن النقد العربي جُذِب إلى كل ما يتربط باللسانيات وبالأبنية اللغوية وهو ما حققته هذه المناهج التي تبحث في البنية الداخلية للنصوص على نحو ليس فيه تهويمات ويمكن ملاحظته والتحقق منه، بل يمكن الاحتكام إلى نتائجه بالرد إلى معيارية البحث اللساني.

---

[١٧]- يُنظَر: حسين، طه: في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩١٤، ص٦٥.

[١٨]- مصلوح، سعد: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، مرجع سابق، ص٢٧.

[١٩]- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب. طبعة منقّحة ومشفوعة ببيليوغرافيا الدراسات الأسلوبية والبنيوية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، دمشق، ١٩٨٢، ص٥١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

٣-١ فروض الأسلوبية:

حظيت الأسلوبية بما لم يحظ به منهج نقدي في المدونة النقدية العربية المعاصرة، بعد أن تلقفها كثير من الباحثين في البلاغة العربية بوصفها- في رأيهم- بضاعتنا التي رُدّت إلينا، لما تنطوي عليه من أصول متشابهة مع علم المعاني، ومع مباحث أصيلة فيه كـ "العدول" على سبيل المثال[٢٠].

ومع أن هذا اختزال كبير للأسلوبية باتجاهاتها الكثيرة، لكن في الوقت نفسه فإن من هذا الباب الواسع كان دخولها إلى التربة النقدية العربية، وكانت مقبوليتها الواسعة، على ما في ذلك من مغالطة منهجية؛ عابها عبد السلام المسدّي على هذه الفئة من الباحثين الذين يربطون بين البلاغة والأسلوبية، ومبعث المغالطة أن هذا الاعتقاد يناقض علة نشأة الأسلوبية ذاتها؛ لأن "الأسلوبية ما لم تبتكر متصوراتها النظرية ومقولاتها التصنيفية حتى تتميز كيفًا وحجمًا عن تقسيمات البلاغة وصورها فإنها تنتقض من حيث تريد أن تكون بديلًا في عصر البدائل، لأنها تفقد بالضرورة كل علة لوجودها"[٢١].

ويذهب صلاح فضل مذهبًا قريبًا في موقع الأسلوبية من الدرس النقدي العربي، مع التحفُّظ على التطبيقات المتحمّسة لمعطيات الدرس الأسلوبي؛ ولاسيما الإحصائي، فرأى أن بعض فروض تطبيق الإحصاء في الأسلوبية تحتاج إلى مراجعة، يقول: "قد أولع بعض الباحثين العرب من اللغويين خاصة والبلاغيين أيضًا بتوظيف المنهج الإحصائي في دراسة لغة الشعر، وقدموا ما يمكن تسميته قاعدة بيانات صلبة تصلح أساسًا لاستخلاص بعض النتائج الهامة المرتبطة بطبيعة اللغة الشعرية ومظاهرها المتعددة لكن الفرضيات العلمية التي تقوم عليها بعض هذه التقنيات تحتاج إلى مناقشة نقدية وفلسفية مستفيضة حتى يمكن أن نطمئن إلى نتائجها"[٢٢].

---

[٢٠]- يُنظَر في ذلك: عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، سلسلة أدبيات، مكتبة لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، بيروت- الجيزة، ١٩٩٤، ص٢٦٨.

[٢١]- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب. مرجع سابق، ص٦.

[٢٢]- فضل، صلاح: مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢، ص١١٥.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

تحيط بالنص التراثي عمومًا، وبالشعر الجاهلي خصوصًا، إشكالات عديدة؛ ومنها إشكالية التوثيق (نسبة القصيدة الجاهلية) ولذا فإن حاجة النص التراثي إلى معايير علمية هي حاجة ملحّة ولها مبرراتها، وفي هذا نجد أحمد صلاح إبراهيم يتناول قضية الانتحال بوصفها قضية أساسية في دراسة الشعر الجاهلي، فيذهب إلى ضرورة أن يكون هناك معايير موضوعية لفصل هذه القضية؛ ولذا لجأ إلى تطبيق الأسلوبية الإحصائية، وتحديدًا معيار يول[٢٣]. وقد انتهى من خلاله إلى نتيجتين ترتبطان بفاعلية النص التراثي دون غيره، وتمثيلًا على ذلك قصيدة امرئ القيس التي طبّق عليها المعيار، وهاتان النتيجتان قد تبدوان دافعين أو فرضين لمن يقرأهما على غير تريث، ولكنهما في حقيقتهما نتيجتان لقابلية التأسيس عليها، وهما:

(أ) طريقة وصول النص التراثي إلينا: فمعلوم أن النص التراثي وصل إلينا بطريق التحقيق، والتحقيق فضلًا عن أنه إخراج للنص على أصل وضعه، فإنه معبّر عن وجهة نظر المحقق العلمية في بناء النص، بما يجعل له خصوصية، وهذا ما توافر لديوان امرئ القيس على نحو ما ذهب أحمد صلاح؛ إذ يقول عن الديوان "إن تقسيمه وفق خطة المحقق أتاح لنا ثلاث درجات من حيث سند الرواية مكنتنا من أن ندرس قصائد كل درجة على حدة"[٢٤].

(ب) المعيار الكمّي: فلا شك أن تطبيق الإحصاء بما يلزمه من توافر بيانات كافية يجعل من النص التراثي مادة ملائمة للتحقق من الفروض، ولذا فإن أحمد صلاح يذهب إلى أن معلقة امرئ القيس ساعدت على ذلك، يقول: "اتخذنا من معلقة امرئ القيس مؤشرًا معياريًّا لأنها القصيدة الأوثق بادئ ذي بدء بالديوان وأخذنا شريحة من ديوان امرئ القيس تمثلت في كل قصائده التي تجاوزت عشرينًا بيتًا؛ لأن المقياس قائم على إحصاء ورود بعض المفردات وتكرارها، وهو ما لا يستبين بصورة

---

[٢٣]- ينظر: إبراهيم، أحمد صلاح: توظيف الأسلوبية الإحصائية في توثيق الشعر الجاهلي. دراسة استشرافية، المجلة العلمية المحكمة لكلية الآداب جامعة السويس، العدد الثامن عشر، يناير ٢٠٢٠، الصفحات من ١٥٣- ٢٤٦.

[٢٤]- إبراهيم، أحمد صلاح: توظيف الأسلوبية الإحصائية في توثيق الشعر الجاهلي دراسة استشرافية، مرجع سابق، ص٢١٩.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

واضحة سوى مع القصائد الطويلة ومتوسطة الطول"[٢٥].

إن أهم ما تكشف عنه هذه المقاربة، ومثيلاتها التي تعتمد على مقياس يول وغيره، هو أن الأسلوبية الإحصائية وجدت في القصيدة الجاهلية إشكالية تحتاج إلى معالجة علمية مقبولة، ألا وهي الانتحال، بعيدة عن الفروض التي تبنّاها الباحثون حول أسبابها أو مدى حقيقتها فيما يخص بعض القصائد، ولذا فإن مثل هذه القضايا تمثِّل إغراء لمطبّقي المناهج العلمية؛ فثمة دراسات أخرى تبنت مناهج علمية بخلاف الأسلوبية، مثل النصيّة على سبيل المثال لحسم هذه القضية بطريقة علمية، من ذلك دراسة شيرين سعيد الباجوري المعنونة بـ "إشكالية الانتحال في ضوء علم النص"[٢٦]، واليوم في ظل الذكاء الاصطناعي وإمكاناته أمكن تطوير خوارزميات لمعالجة القضية نفسها، من ذلك بحث "تحديد هوية الشاعر في الشعر العربي باستخدام Bayes Naive"[٢٧]. ولذا فإن الشعر الجاهلي من أجل ذلك مثّل مادة ملائمة وخصيبة ليس لتطبيق المناهج فحسب وإنما لتطويرها؛ لما ينطوي عليه من إشكالات تحتاج إلى حسم بلغة العلم ومنهجه.

٣-٢ فروض البنيوية:

لعله بات معلومًا لدى الدراسين أن البنيوية لاقت قبولًا واسعًا في البيئة النقدية العربية لما انطوت عليه من وضوح في الأدوات وتعدد في المداخل واتساع لتطعيمات منهجية من مناهج أخرى نصية وسياقية على حدّ سواء، وقد حظي النص الشعري القديم بتطبيقات بنيوية عديدة، يأتي في صدارتها شهرة وحضورًا لدى الدارسين في النقد وفي نقد النقد، محاولة كمال أبي ديب في كتابه الشهير "الرؤى المقنعة" الذي جمع تحليلات ورؤى منهجية كان قد طرحها في أكثر من نافذة، وكلُّها تقترح منهاجية للتحليل البنيوي مدفوعة بتبريرات لحاجة النص الشعري القديم لفهم جديد ومغاير للفهوم السابقة؛ سواء لدى مؤرخي الأدب في القرون الثلاثة الأولى أو لدى المتأخرين في الحقبة المبكرة من

---

[٢٥]- المرجع السابق نفسه.

[٢٦]- الباجوري، شيرين سعيد: إشكالية الانتحال في ضوء علم النص، مجلة اللغة الوظيفية، العدد الثاني، مارس ٢٠١٦. الصفحات ١٩٩- ٢٢٨.

[٢٧]- الفلاحي، أحمد محمد: تحديد هوية الشاعر في الشعر العربي باستخدام Bayes Naive، مجلة نزوى، أغسطس ٢٠١٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

القرن العشرين.

ثمة خلاف كبير حول جدوى ما قدّمه أبو ديب، وتحديدًا حول اختياراته من البنيوية وما أجراه عليها من تعديلات تخدم فرضياتُه منهجيتَه هو لا فرضيات البنيوية المطلقة، ولا مجال هنا للدخول فيها أو إعادة طرحها، ولكن فقط نشير إلى أن أبا ديب وجد في الشعر الجاهلي دون غيره مساحة رحبة لطرح الفروض المنهجية، وتنسيبها للبنيوية، وكذلك مساحة ربما أشد رحابة للمقترحات المنهجية التي تعدّل من الرؤية البنيوية وتعيد توجيهها لتخدم التصورات المنهجية لدى صاحبها، وتصوراته أيضًا عن النص محل التناول.

لقد سبق أن تعرّضنا في هذا البحث إلى أن النص الشعري الجاهلي بالفعل به إشكالات تغري بالتحليل العملي المنهجي، ولذا فقد قصد أبو ديب إلى أكثر ما يُطرح من إشكالات حول طبيعة البنية الشعورية، وعلاقة الداخل بالخارجي السياقي، ووحدة القصيدة، وتعقد أبنيتها وتشابكها، وعلاقة الشعر الجاهلي بعضه ببعض بوصفه بنية كلية فيها من التشابه أو التنافر؛ وقد اختار مجموعة من القصائد لشعراء المعلقات ولغيرهم، يهدف من وراء تحليلها إلى أن يقدّمها في نمط جديد من القراءة؛ يقول: "يحاول البحث أن يموضع دراسة الشعر الجاهلي على مستوى من التحليل يرتفع على المستويات التاريخية، والتعليقية والتوثيقية أو اللغوية والبلاغية والانطباعية التي تتم عليها معظم الدراسات الآن"[٢٨]. وهذا في رأيه يجعل الشعر الجاهلي في حاجة ماسّة لمنهج علمي نظرًا لخصوصيته البنيوية؛ يقول: "لماذا الشعر الجاهلي يحتاج إلى منهج علمي؟ ... دراسة الشعر الجاهلي لا يمكن أن تكتمل في غياب تحليل علمي دقيق لما يكشف عنه هذا الشعر وعلاقات سائدة ضمن البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية"[٢٩].

نكتفي فقط بعرض فروضه فيما يخص الدراسة الأولى التي أجراها على معلقة لبيد، وعلى رأسها فرضية تفتت القصيدة وخطاطته للتحقق منها، يقول: "ينبغي التذكير بأن

---

[٢٨]- أبو ديب، كمال: الرؤى المقنّعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، لكمال أبو ديب، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت، ص٥.

[٢٩]- المرجع السابق، ص١١.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

القضية الأساسية التي تدور حولها الدراسة الحاضرة هي بنية القصيدة. في القصيدة الجاهلية يبرز التنوع في الخطوط المضمونية بروزًا واضحًا ويتميز مشكلًا ملمحًا يسهل إدراك كونه أحد الملامح الأساسية للقصيدة، لكن سؤالًا مهمًّا يفرض نفسه: هل يصح وصف هذا التنوع بأنه تفتُّت بنيوي أو انعدام للوحدة (أو بنية مفتتة)؟ أو التنوع يمثِّل على صعيد تحتي عميق بعيد الغور، بنية للتجربة ومنحى خاصًّا في معاينة الواقع، منحى يتجسّد بعد ذلك في بنية متعددة الشرائح قادرة على نقل هذه الرؤية وإيصالها بصورة أكثر حدة وتجليًّا وكمالًا من أي بنية أخرى؟"[٣٠].

في هذه الدراسة لمعلقة لبيد التزم أبو ديب منهجًا ذا معالم في التطبيق، على الرغم من أنه لم يكن حرفيًّا في التزامه بمنهج ليفي شتراوس بصورة دقيقة؛ وهذا مما يؤخذ عليه، ولكنه مع ذلك التزم منهجًا علميًّا في المعالجة النقدية برمتها؛ ينص في هذا الفصل على هدفه وخطته: "تهدف الدراسة الحاضرة إلى اقتراح الخطوط العامة لمنهج نقدي جديد هو، من حيث الطاقات الكامنة فيه، أغنى مردودًا وأعمق قدرة على إضاءة بنية القصيدة من المناهج السابقة، ويفيد هذا المنهج من النظريات النقدية الحديثة ومن البنيوية، وبشكل خاص من منهج التحليل البنيوي للأسطورة كما طوّره واستخدمه كلود ليفي شتراوس"[٣١].

يظهر من دافع اختيار القصيدة؛ أي معلقة لبيد، إلى أي مدى تستطيع هذه القصيدة أن تعين على تقديم تحليل بنيوي ناجح، لما تتفرد به بنيتها المتشابكة والمعقّدة على حد وصفه إياها؛ يقول: "إن اختيار القصيدة ينبع من حدس عميق بأن رؤياها الأساسية للوجود تحتل مكانًا مركزيًّا في الشعر الجاهلي كله، ثم من كونها، على الأقل بنيويًّا، إحدى أكثر قصائد التراث تشابكًا وتعقيدًا وغنى"[٣٢].

ومن ثم فإن كانت لديه مراهنة مزدوجة على القصيدة وعلى المنهج على السواء، فالمنهج البنيوي بما استطاعه من تحليل مسألة شديدة التعقيد مثل الأسطورة يستطيع أيضًا

---

[٣٠]- المرجع السابق، ص٥٠، ٥١.

[٣١]- أبو ديب، كمال: الرؤى المقنّعة، مرجع سابق، ص٤٦ .

[٣٢]- المرجع السابق، ص٤٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

أن يفك شفرات قصيدة ذات بنية متشعّبة مثل معلقة لبيد؛ ولذا فإنه يعقّب قائلًا: "وهكذا فإنها تفرض على الباحث أن يطرح عددًا من الأسئلة أكثر تنوُّعًا وشمولية، وإذا كان ثمة من حاجة لتبرير بداية كهذه، فإن التبرير يمكن أن يُسْتقى من كون هذا المنهج قد برهن على غنى إمكانياته وطاقاته في دراسة ظاهرة أخرى عميقة الغنى والتعقيد وهي الأسطورة"[٣٣].

لقد منح الشعر الجاهلي لكمال أبو ديب، مثلما منح لغيره مساحة من الاحتمالات القرائية، والممكنات الإجرائية، التي جعلتهم يطبقون مقولات منهجية، بل ويطوّرون من منهاجية خاصة بهم، لا يقف الشعر الجاهلي حجر عثرة أمامها، بل يستجيب لمحاولات إنتاج المعنى، لما ينطوي عليه من غنى دلالي وأسلوبي.

٣-٣ فروض السيميائية:

يومًا بعد يوم تتسع الأرضية التي تشغلها السيميائية بتعدد مداخلها، وذلك لما تكتسبه من صلاحية تطبيقية، عمل على إيجادها اشتغالات نقدية متعددة على النصوص الأدبية ولا سيما الشعرية، فالشعر فيما تظهره المدونة النقدية يبدو أكثر صلاحية واستيعابًا للأدوات التحليلية الدقيقة للسيمياء، ربما لطبيعة لغته المكثفة ذات المحمولات الدلالية المتشابكة، وربما أيضًا لطبيعة البنية في القصيدة التي تؤطّر لغويًّا وإيقاعيًّا وبيانيًّا على نحو قد لا يتوافر في الأجناس الأخرى التي تجعل البنية ضمن رهاناتها المتعددة، وليست رهانها الأول.

ثمة محاولة مهمة للناقد الأردني موسى ربابعة في تطبيق المنهج السيميائي على أكثر من قصيدة جاهلية، جمعها في كتابه "مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي". وهو جزء من مشروع عريض له في دراسة الشعر الجاهلي، فمعلوم أنه صاحب تجربة ضافية بالاهتمام بالنص القديم.

قبل أن نقف أمام كل مقاربة من مقاربات الكتاب لتبيُّن الفروض التي تنطلق منها، نقف أولًا على منطلقه العام ومبررات الفروض السيميائية المعروضة على النص الجاهلي أو بصيغة أخرى محتملة مبررات عرض النص الجاهلي عليها، فهو يقدّم

[٣٣]- المرجع السابق نفسه.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

مبررات للمقاربة السيميائية عمومًا، تعكس إلى أي مدى أن النص الجاهلي يستوعب المناهج؛ ولكن من منطلق عام؛ حيث يقول في توطئة مقاربة قصيدة الشنفرى الصعلوك: "ترتسم معالم تجربة الصعاليك في إطار الشعر العربي القديم عامة والشعر الجاهلي خاصة حسب منظور يتعمق على المستوى البنائي والمستوى الرؤيوي، مما يجعل هذا الشعر قابلاً لاستيعاب مقاربات متعددة إبستمولوجية وسوسيولوجية وأنثروبولوجية ونفسية وبنائية وأسطورية وأسلوبية وسيميائية إلى غيرها من المقاربات"[٣٤].

حلل ربابعة قصائد جاهلية بمنطلقات وأدوات السيميائيات؛ فمقارباته استوعبت أكثر ما أفرزته البحوث السيميائية في إطاريها النظري والتطبيقي، والقصائد محل الدراسة هي: لامية العرب للشنفرى الأزدي ، و"نام الخلي" للأسود بن يعفر، وقصيدة "ودِّع لميس" لأوس بن حجر، وقصيدة المخبّل السعدي التي مطلعها: ذكر الرباب وذكرها سقم.....، ومراثي الخنساء.

إن مقاربات الكتاب استوعبت جلّ المداخل السيميائية، وقد أعانت القصيدة الجاهلية باختلاف أغراضها على هذا الاستيعاب، بعد أن تحقق شرط أساسي وهو أن تكون الأدوات لدى ناقد واعٍ بالاشتغال المنهجي وخصوصية الأداة والنص معًا؛ فالسيمياء في علاقتها بالشعر وتأويله تسير وفق مانيفستو إن صح الوصف يشمل طرفي العملية النقدية: النص والناقد؛ لأننا "لكي نقرأ قصيدة ما ينبغي أن نعرف موروثها النوعي، أي ما يسميه جيرار جينيت جامع النص Architext وعددًا من نماذج ذلك النوع. ولابد أن نكون ماهرين في فرز عناصر النص: السردية، الدرامية، الخطابية، الشخصية، الغائبة بسبب الطبيعة الإجمالية التي تعتمد الحذف البلاغي في الخطاب الشعري"[٣٥].

في ضوء ذلك، قد نذهب إلى أنه قد يكون سببًا رئيسًا من أسباب فاعلية النص الجاهلي في التطبيق النقدي وفق فروض علمية، هو أنه توافر له من الثبات جماليًّا، ومن

---

[٣٤]- ربابعة، موسى: مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، ٢٠١٨، ص٦.

[٣٥]- شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٤، ص٧٧.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

رسوخ التقاليد ووضوحها، ما يجعل الناقد يطمئن إلى أنه يجري تشريحًا في الضوء على جسد له معالم وتضاريس وتفريعات معلومة أو متوقَّعة، وهذا باعث على الاطمئنان إلى جدوى إجراء بحث نقدي قد يكون مضنيًّا، لكن ما يعزّى به الناقد هو أنه يؤدي إلى نتائج من الصلابة بمكان.

لقد طبّق ربابعة على لامية العرب مداخل متعددة تنتمي إلى السيميائيات العامة، وما نضع أيدينا عليه هو ما يبدو من خصوصية النص القديم في تطبيق السيميائيات العامة، لكنه حدد خصوصية لنص الشنفرى: "إن العودة إلى مقاربة لامية العرب تعني أكثر من دلالة، فمثل هذه النصوص تكتنز دلالات كثيرة ومتعددة ، فهي نصوص غنية ومثيرة إلى حد يتجاوز معه القارئ المقاربة السطحية القائمة على الاستهلاك، ويجد نفسه في لحظة اندماج مع النص ، وهو اندماج لا يتولد من ثيمة النص وحسب، وإنما من بنائه، فهو بناء يستوعب تجربة إنسانية مبكرة، إنها تجربة اللاتناغم واللانسجام مع المحيط، إنها غربة الروح والوعي على حد سواء، وهي نزعة نحو التمرد والتمدد خارج الإطار القبلي"[٣٦].

وفي ضوء ذلك أمكن قراءة القصيدة بمداخل سيميائية متعددة مثل (سيمياء الاستهلال- سيمياء التوحُّش- سيمياء الأنسنة- سيمياء النفي- سيمياء الجوع- سيمياء العطش- سيمياء الأُلفة- سيمياء الليل). وكان الرهان على التأويل في التحقق من فاعليتها جميعًا، فهي مقاربة جمعت بين السيميائية عمومًا وما يُعرف بالسيميائيات التأويلية.

وقد حلل من خلال السيمياء أيضًا "سيمياء العواطف" في قصيدة "نام الخليّ" للأسود بن يعفر؛ يقول: "وهنا سيتم الاشتغال على سيمياء العواطف أو سيمياء الأهواء ،التي أسس أركانها جريماس وفونتني، في كتابهما سيمياء الأهواء، وذلك لأن النص موضوع الدراسة يعكس حالة شعورية تتأسس على الأرق أو القلق الذي يشكل حالة من الهوى ، أو الأزمة الاستهوائية، ولذا تغدو المقاربة في ضوء سيمياء العواطف عملية قادرة على الكشف عن الدلالات الكامنة في النص"[٣٧].

---

[٣٦]- ربابعة، موسى: مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي، مرجع سابق، ص٦.

[٣٧]- المرجع السابق، ٦٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

ومبحث سيمياء الأهواء أو سيمياء العواطف مبحث أصيل في القراءة السيميائية، وقد أسس له غريماس وفونتني كما تقدّم، ويُظهر التحليل بالاعتماد عليه مدى صلاحية هذا المدخل ومناسبته للبنية العاطفية للقصيدة: "ويغدو الاعتماد على سيمياء الأهواء دون غيرها في هذه الممارسة القرائية كامنا في قدرتها على الكشف عن النوازع النفسية وحزمة الانفعالات وتحولها إلى حالة استهوائية منذ بداية القصيدة حتى نهايتها ، ولذا فإن الاستعانة بمقولات سيمياء الأهواء في هذا النص، يمكن أن تكشف عن تجليات دلالية منبثقة من الاهتمام بالانفعالات والعواطف المتصلة بالذات الشاعرة، وهي تبني نصها بناء تسيطر فيه حالات من الهوى أو الشعور المسيطر"[٣٨]. إن هذه المقاربة بفرضياتها تبدو مقبولة إلى حدٍّ بعيد مع هذه القصيدة ومثيلاتها؛ فقد "اعترفت السيميوطيقا من البداية بالإسهام الذي تمارسه الحالات الشعورية التأثيرية على إنتاج المعنى وتبنّتْه"[٣٩].

وفي قصيدة أوس بن حجر "ودّع لميس"، يقوم التحليل السيميائي على استكناه سيمياء النص المائي، وفي هذه المعالجة نجد تصريحًا بالفرضية التي يحاول بحثنا استجلاء فاعلية النص الجاهلي في التحقق منها، فالشعر الجاهلي قادر على إفراز دلالاته ثرية شريطة أن يُتعامَل معه بوعي منهجي، يقول: " أن النص الشعري الجاهلي الذي خضع لاشتراطات المناهج النقدية المختلفة يثبت أنه نص حيوي تتخلق محمولاته الدلالية ويكشف عنها عبر الممارسة النقدية الواعية، فالوعي بالنص شرط أساسي لا يختلف في أهميته من الوعي بالمنهج"[٤٠].

ويشير ربابعة في مبررات تحليله هذه القصيدة وفق المنهج السيميائي إلى معطى بالغ الأهمية فيما نسعى إلى استجلائه حول فاعلية النص القديم التي تنشأ عن التعدد الموضوعي والتعدد الرؤيوي فيه، فربابعة يرى أن القصيدة ليست أحادية وإنما متعددة الموضوعات، متخم بالعلامات التي تتطلب استقراءً، ومن ثمّ فالنص "يقتضي حركة فهم

---

[٣٨]- المرجع السابق، ص٦٤.

[٣٩]- ماتن، برونوين، ورينجهام فليزيتاس: معجم مصطلحات السيميوطيقا، ترجمة: عابد خازندار، مراجعة: محمد بريري، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٨، ص١٧٠.

[٤٠]- ربابعة، موسى: مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي، مرجع سابق، ص١٠٠.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

دائبة تحاول الربط بين أجزائه، ولما كان هذا النص يعج بعلامات متنوعة ومتعددة يغدو الإمساك بالدلالة والتقاطها عملا ليس يسيرا؛ لأن اكتناه عالم النص يتطلب قراءة تتأسس على مواجهة نص فيه مسحات من الغموض التي تحتاج إلى فك الشيفرات التي يتضمنها"[٤١].

بالنظر المتمعن إلى مقاربات ربابعة في هذا الكتاب نجده استوعب مداخل السيميائية في أصالة بادية على مستويي المرجع النقدي بالاعتماد على المراجع الأصيلة في الدراسة السيميائية التي في ضوئها يتأطر التحليل النقدي والتأويل، وقد اشتركت جميع القصائد محل الدراسة في أن بها مقوّمات التحليل؛ فمن الأمثلة الواضحة على ذلك أن الحواس كانت موضوعًا حاضرًا بصورة دائمة، والحواس هي واحدة من موضوعات الدرس السيميائي؛ وهي من المعطيات المهمة التي يمكن سميأتها على حد تعبير سعيد بنكراد؛ فـ "الأنساق التواصلية مرتبطة أساسًا بالحواس، أي إنها تحدد الحالات الأولى للإدراك الحسي المبني على الالتقاط المباشر لما يوجد خارج الجسد الإنساني".[٤٢]

وهكذا فعل ربابعة في تحليله انطلاقًا من أن القصيدة الجاهلية ذات ارتباط وثيق بالحس وبالحواس؛ وقد كان الناقد نفسه ذا وعي واضح بهذا الموقع للحواس في التحليل السيميائي، يتضح من خلال الالتفات إليه مع كل قصيدة، ومن التصريح بوعيه بفاعلية الحواس في أكثر من موضع؛ ومن تبريره لمقاربة حاسة التذوق في تحليل قصيدة أوس بن حجر، بقوله: "فالعذوبة إشارة مهمة لأنها تعيد القارئ إلى حاسة الذوق، التي تشكل أيقونة تحيل على الطعم والمذاق الذي لا يبقى ذا بعد حسي، وإنما يصبح حالة من الوعي القائم على التذكر؛ لأن اشتغالات الحواس ترتبط ارتباطا وثيقا بالعلامات السيميائية، فالمذاق أمر حسي يشتغل داخل الوعي باللحظة الجمالية التي تستدعى استدعاء يشكل إضافة مهمة؛ لأن العلامة اللغوية تنفتح على دلالات مهمة"[٤٣].

---

[٤١]- المرجع السابق، ص١٠٠.

[٤٢]- بنكراد، سعيد: السيميائيات. مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، اللاذقية، ٢٠١٢، ص٣٠.

[٤٣]- ربابعة، موسى: مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي، مرجع سابق، ص١٠٣.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

- **خاتمة:**

في ختام هذه الدراسة يمكننا الانتهاء إلى الآتي:

- لا يعني ثبات فاعلية النص التراثي في تطبيق الفروض العلمية المنهجية أنه مادة بلا إشكالات، وأنه مادة يطمئن إليه الباحثون، فالأمر ليس كذلك؛ لأن بعض الأدوات الإجرائية لا يلائمها النص التراثي، فمثلا فيما يرتبط بقضية توثيق الأدب الجاهلي، يواجه الباحثون تحدّيًا كبيرًا أشار إليه أحمد صلاح في تطبيقه مقياس يول على شعر امرئ القيس، ألا وهي معيار اختيار القصائد للتطبيق وفق آلية المدى المعياري التي حددها يول، إذ لا يتحقق المدى المعياري في كثير من القصائد الجاهلية باستثناء شعراء المعلقات[٤٤].
- المراهنة دائمًا لا تكون فقط على المنهج وحده في تحليل النص القديم، بل يتقاسم المنهج والناقد حظوظهما في محاورة هذا النص وقراءته؛ وعلى هذا كان ما قدمه أبو ديب وربابعة، فكلاهما وإن عرض فروضًا علمية، وصرّح بمنهجه المتبّع، وعاد إلى الأصول النظرية للمنهج، فإنهما لم يلتزما المنهجية الصارمة، فأبو ديب خرج عن منهجياته البنائية المقترحة بمنهاجية أخرى من وضعه هو، وربابعة كان يلجأ إلى التأويل الذي لم يختلف في بعض مناحيه من التأويل أو من القراءة الفاحصة.
- في حالة الشعر القديم، تبدو المناهج النصية ذات جدوى بالغة في مقاربته، وذلك لأنه بنية لغوية محضة، والرهان الجمالي فيه رهان على اللغة التي تقود إلى خارج النص إذا ما توافر لها استعدادات للقراءة التي تكتشف علاقاتها، وتقف على انحرافاتها، وتؤوّل مستوياتها الدلالية، وهذا ما تفعله المناهج النصية اللسانية كالأسلوبية والبنيوية والسيميائية.
- تَعِدُ النصوص التراثية بما لها من تقاليد ثابتة معلومة بأن تكون المادة الأكثر مقبولية في أي تطوير منهجي مستقبلي، ولا أستبعد أن يكون للذكاء الاصطناعي دور كبير

[٤٤]- يُنظَر تفصيل الأمر في: إبراهيم، أحمد صلاح: توظيف الأسلوبية الإحصائية في توثيق الشعر الجاهلي دراسة استشرافية، مرجع سابق، ص١٧٦.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

في حل كثير من الإشكالات المرتبطة بالنص التراثي عمومًا، مشتملًا على الشعر والنثر والمخطوطات العلمية، وأن تكون التطبيقات الرقمية ذات جدوى في حالة القديم أكثر من الحديث، أو على الأقل أن تكون البداية مع النص القديم، وعلى أساسه تبنى الخوارزميات الصالحة لغيره من النصوص الحديثة.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

المراجع

- **أولًا: المراجع العربية والمترجمة:**

١- إبراهيم، أحمد صلاح: *توظيف الأسلوبية الإحصائية في توثيق الشعر الجاهلي. دراسة استشرافية*، المجلة العلمية المحكمة لكلية الآداب جامعة السويس، العدد الثامن عشر، يناير ٢٠٢٠، الصفحات من ١٥٣- ٢٤٦.

٢- إيغلتون، تيري: نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، سلسلة دراسات نقدية عالمية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٩٥.

٣- أبو ديب، كمال: الرؤى المقنّعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، لكمال أبو ديب، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

٤- الباجوري، شيرين سعيد: *إشكالية الانتحال في ضوء علم النص*، مجلة اللغة الوظيفية، العدد الثاني، مارس ٢٠١٦. الصفحات ١٩٩- ٢٢٨.

٥- بلبولة، أحمد: *صراع التأويل في معلقة عنترة*، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، ع٩٤، أغسطس ٢٠١٦.

٦- بنكراد، سعيد: السيميائيات. مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، اللاذقية، ٢٠١٢.

٧- حسين، طه: في الأدب الجاهلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩١٤.

٨- ربابعة، موسى: مقاربات سيميائية في النص الشعري الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمّان، ٢٠١٨.

٩- الشايب، أحمد: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة، القاهرة، ١٩٩٤.

١٠- شولز، روبرت: السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٤.

١١- طودوروف، تزفيطان: الأدب في خطر، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٧.

١٢- عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية، سلسلة أدبيات، مكتبة لبنان ناشرون – الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، الطبعة الأولى، بيروت- الجيزة، ١٩٩٤.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898

١٣- عفيف، عبد الرحمن: الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديمًا وحديثًا" لعفيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٥.
١٤- عياد، شكري محمد: دائرة الإبداع مقدمة في أصول النقد، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، الطبعة الأولى، دبي، ٢٠٠٨.
١٥- فراي، نورثروب: تشريح النقد. محاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، ١٩٩١.
١٦- فضل، صلاح: مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢.
١٧- الفلاحي، أحمد محمد: *تحديد هوية الشاعر في الشعر العربي باستخدام Bayes Naive*، مجلة نزوى، أغسطس ٢٠١٦.
١٨- ماتن، برونوين، ورينجهام فليزيتاس: معجم مصطلحات السيميوطيقا، ترجمة: عابد خازندار، مراجعة: محمد بريري، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٨.
١٩- المسدي، عبد السلام: الأسلوبية والأسلوب. طبعة منقّحة ومشفوعة ببيليوغرافيا الدراسات الأسلوبية والبنيوية، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة، دمشق، ١٩٨٢.
٢٠- مصلوح، سعد: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٢.
٢١- مكاكي، محمد: *إشكالية العلمية في النقد الأدبي من منظور شكري عياد*، مجلة دراسات معاصرة، مجلد ٦، عدد ٢، ٢٠٢٢.
٢٢- ميدان، أيمن: *الشعر الجاهلي وتعدد القراءات. كمال أبو ديب نموذجًا*، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ج٧٧، ٢٠١٣.

- **ثانيًا: مراجع أجنبية:**

23-Culler, Jonathan: Structuralist Poetics, Structuralism, Linguistics and the Study of Literature, londen and New York, First Published in Routledge Classics, 2002, P. XIV.

ISSN : 2537-0847 eISSN : 2537-0898